دمشق ومعالمها الحضارية
كما شاهدها الرحالة الأندلسي ابن جُبَيْر

د. محمّد علي دبُّور

دكتوراه من جامعة مدريد المركزية (إسبانيا)

Universidad Complutense de Madrid (España)

أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم-جامعة القاهرة والمعار -حاليًا- أستاذًا مشاركًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

تقديم:

كانت الرحلة في العصور الوسطى واحدة من أهم وسائل التعليم والتلقي والازدياد من المعرفة والعلم، وكان الهدف الأول الذي يبتغيه الرحالة من رحلتهم هو الرغبة في ارتياد مراكز العلم في بلاد المشرق، والجلوس إلى العلماء والأساتذة والشيوخ، والأخذ عنهم واستجازتهم والرواية عنهم؛ حرصًا على الإسناد العالي، الذي يصل الطلبة بمؤلفي كتب الحديث وغيرها من أمهات الكتب الشرعية(١)، وإضفاء الثقة والأمانة على ما نقلوه عن غيرهم من روايات ومعلومات متعددة.

وقد بيّن ابن خلدون أهمية الرحلة العلمية في قوله: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلاّ أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب

---

(١) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون- دار البيان العربي- جدة، د. ت، ص ٣٢٠.

العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[1].

فقد كانت الرحلة سجلاً يكشف عن المنابع الثقافية التي ارتوى منها العالم، والأصول التي اعتمد عليها، والتي كانت-دون شك-مرجعًا له فيما ألف من المصنفات[2]، كما عُدَّت الرحلة جانبًا مهمًّا في تقدم الأدب الجغرافي الإسلامي، ومصدرًا موثوقًا به إلى حدٍّ كبير؛ إذ كان الرحالة- في الغالب- دقيق الملاحظة، حاضر البديهة حتى أصبحت كتب بعضهم من معالم الأدب العالمي[3].

كما كانت تحدوهم الرغبة في مشاهدة المعالم الحضارية في كل مدينة يمرون بها، فيصفونها، ويتحدثون عن تاريخها وقيمتها المعمارية وتطورها، ويرصدون صورة حية واضحة المعالم لمختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

وكان المشرق لا يزال محط أنظار المغاربة والأندلسيين، ويسترعي اهتمامهم؛ لما تضمّه بيئته من معالم روحيّة ودينيّة تُقصد للعبادة والتبرّك والاعتبار، والرغبة في لقاء علماء كبار في مختلف العلوم ومجالستهم والأخذ عنهم، ولما يحسّه الرّحالة من روابط تاريخيّة وحضاريّة تربط بين المشرق والمغرب، واشتراك في الأهل والنسب أحيانًا كثيرة، فالإحساس بالوحشة والاغتراب والحزن يكاد ينعدم عند المغاربة والأندلسيين وهم يزورون المشرق أو يمكثون فيه لفترات طويلة بسبب تلكم الروابط الدينية والروحية والاجتماعية التي تربط بين الإقليمين.

ومن هنا كان أدب الرحلات هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، حيث يسجل

---

(١) ابن خلدون: المقدمة- حققها وقدم لها وعلق عليها: عبد السلام الشدادي- منشورات خزانة ابن خلدون (بيت الفنون والعلوم والآداب)- الدار البيضاء- ط١، ٢٠٠٥ م، ٣/ ٢٢٦.

(٢) د. أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(٣) د. حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس- نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مدريد- ط ٢، ١٩٨٦ م، ص ٩.

انطباعاته، ويصف ما يراه من عادات البشر وسلوكهم وأخلاقهم، كما يهتم بذكر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية التي يشاهدها ويتفاعل معها، لذلك فإن أدب الرحلات يُعدُّ مصدرًا مهمًا للدراسات التاريخية المقارنة، كما تُعدُّ كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية من ناحية، ومفيدة تاريخيًا وحضاريًا من ناحية أخرى.

ويعد ابن جبير (٥٣٩-٦١٤ هـ/ ١١٤٤-١٢١٧ م) من أشهر الرحالة الأندلسيين الذين قاموا برحلات إلى المشرق العربي، وقد تمتعت رحلته بمكانة عالية بين الرحلات الأندلسية، حيث اهتم فيها بتسجيل خط سيرها وأحداثها البرية والبحرية ومشاهداته الجغرافية وما يصل إليه من معلومات تاريخية عن المدن والجزر والطرق البرية والبحرية والموانئ التي ينزل بها أو يبحر منها مما وسم رحلته - التي استغرقت عامين وثلاثة أشهر- بالدقة والعلمية، كما اهتم اهتمامًا شديدًا بوصف كل ما مر به من مدن، وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع والصنائع، والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية، وصوّر ما قابله من ألوان العدل والظلم، وقد عُنِيَ عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والشواهد وقبور الصحابة ومناسك الحج ومجالس الوعظ والمستشفيات، ووصف كذلك الكنائس والمعابد والقلاع، وغير ذلك من المعالم الحضارية التي رآها في رحلته(١).

(١) اهتم المستشرقون في الغرب بترجمة "رحلة ابن جبير" وطباعتها؛ لأنها شكلت مرجعًا موثوقًا به لا غنى عنه للمؤرخين والجغرافيين وكل من يريد الاطلاع على أحوال الحياة الاجتماعية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، فطبعت لأول مرة في مدينة ليدن سنة ١٨٥٢ م مع مقدمة للمستشرق رايت الأستاذ بجامعة كمبردج، وأعيد طبعها مرة أخرى بليدن في ١٩٠٧ م وصدّرت بترجمة لحياة ابن جبير وراجع هذه الطبعة المستشرق دى خويه وقام بترجمتها إلى الإنجليزية كما تُرجم من هذه الرحلة القسم الخاص بصقلية إلى الفرنسية وطبع سنة ١٨٤٦ م، كما صدرت طبعة محققة عن دار التراث عام ١٩٦٨ م وأخرى مصورة بدون تاريخ عن دار صادر ببيروت.

لقد ترك لنا ابن جبير رحلة تعد رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها، وشهادة العيان هي قمة ما يصبو إليه المؤرخ لتسجيل الروايات التاريخية، وقد دون خلال هذه الرحلة الكثير من المعلومات التي تعد وثائق من الدرجة الأولى لما تميز به هذا الرحالة من دقة الملاحظة، وصريح العبارة، وسلاسة الأسلوب، إذ إنه اعتمد أسلوبًا مرنًا أثبت فيه تمكنه من آليات الرصد والتوصيف، فلم يدع تفصيلاً بسيطًا يغيب عنه ولم يغفل شيئًا مما وقعت عليه عينه، فكانت رحلته من المصادر الأساسية لتاريخ كل بلد مر به، كما تعد مصدرًا مهمًّا للباحثين في مجالات التاريخ والاجتماع والحضارة الإسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

* * *

المبحث الأول

ابن جبير: حياته العلمية ورحلاته

أولاً- نسبه وحياته العلمية:

١- نسبه:

ولد أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير البلنسي الأصل، غرناطي الاستيطان، في بلنسية أو في شاطبة في ١٠ من ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م، أو سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م[١]، ويعد القاسم بن يوسف التجيبي[٢] من الأوائل الذين ترجموا لحياته، إذ ذكر سلسلة نسب هذا الرحالة فقال عنه: «هو الأديب الفاضل الزاهد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير ابن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن عبد السلام بن جبير الكناني الداخل إلى الأندلس مع بلج القشيري»[٣].

وينحدر ابن جبير من أسرة عربية عريقة، سكنت الأندلس قادمة من المشرق، وقد كفانا ابن الخطيب عناء البحث في بقية سلسلة نسبه، فأكمل ما ورد عن التجيبي في قوله: «دخل جده عبد السلام بن جبير في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في محرم ثلاث وعشرين ومائة، وكان نزوله بكورة شذونة، وهو من ولد ضمرة بن كنانة ابن بكر بن عبد المناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة – تحقيق: محمد عبد الله عنان- مكتبة الخانجي- القاهرة – ط١، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، ٢/ ٢٣٠-٢٣١، ٢٣٩. المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر- بيروت، ٢٠٠٤ م، ٢/ ٣٨٢.

(٢) هو أبو القاسم بن يوسف بن محمد السبتي التجيبي، ولد في سبتة سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م زمن حكم بني مرين للمغرب الأقصى، وله مؤلف حول رحلته نحو بلاد المشرق، بعنوان "مستفاد الرحلة والاغتراب" (أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د. ت، ص ٣٥٥).

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب، نقلاً عن المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٣.

معد بن عدنان»[1]، وأضاف ابن عبد الملك المراكشي أن أباه حل بشاطبة، واستوطن جيان، ثم غرناطة، ثم فاس إلى أن توفي بالإسكندرية، وقد تجول في العديد من مدن الغرب الإسلامي حسبما اقتضته الأحوال[2].

٢- مشيخته:

ألمّ ابن الخطيب بشيوخ ابن جبير وأسهب في ذكرهم مستهلاً الحديث عنهم ببيان شغف هذا الرحالة بعلوم الدين، حيث سمعها من أبيه، وأخذ القرآن عن أبي الحسن ابن محمد بن أبي العيش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصيلي، وتعلم قواعد العربية عن أبي الحجاج بن يسعون، وأخذ بسبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي[3].

كما لقي في رحلته العديد من أعلام العلماء وأكابر الزهاد والفضلاء أثناء رحلته لأداء فريضة الحج، فلقي بمكة الشريفة ضياء الدين بن أحمد بن عبد الوهاب بن علي ابن سكينة، وأبو إبراهيم بن إسحاق بن عبد الله الغساني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميّانجي، نزيلا مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفنكي، وأبو محمد عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخُجَنْدي[4] رئيس الشافعية بأصبهان[5]، وأخذ العلم ببغداد عن العالم الواعظ المستبحر أبو الفرج - وكناه أبو الفضل- ابن الجوزي، وحضر بعض مجالسه الوعظية، وقال فيه: «فشاهدنا رجلاً ليس

---

(١) ابن الخطيب: المصدر السابق، ٢/ ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة- تحقيق: د. إحسان عباس- دار الثقافة- بيروت، ١٩٦٥ م، السفر الخامس، القسم الثاني، ص ٥٩٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، الصفحة نفسها. ابن الخطيب: المصدر السابق، ٢/ ٢٣٢.

(٤) ذكره ابن الخطيب بلقب (الحَجَري)، ولعله تصحيف. انظر: الإحاطة، ٢/ ٢٣٣. وهو عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخُجَنْدي، أبو القاسم صدر الدين، من أهل أصبهان، كان أديبًا واعظًا، توفي سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م. انظر: المقري، المصدر السابق، ٢/ ٣٨٢، هامش ١. طبقات السبكي، ٤/ ٢٦١.

(٥) ابن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، ص ٥٩٦-٥٩٧.

بعمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصّيد»(١).

وروى بدمشق عن أبي الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي ابن محمد بن أبي عبد الله بن عباس السّلمي ابن الموازيني، وأبي سعيد عبد الله بن محمد ابن أبي عصرون، وأبي الطاهر بركات الخشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني، وأخذ عنه بعض كلامه، وغيره، وأبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر بن عبدان، وأبو محمد عبد الرازق بن نصر بن مسلم النجار، والقاسم بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبي الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم، والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن صصري الربعي التغلبي، وعبد الرحيم ابن إسماعيل بن أبي سعد الصوفي، وأجازوا له، وبحرّان الصوفي العارف أبي البركات حيان ابن عبد العزيز، وابنه الحاذي حذوه(٢).

٣- سلسلة العلماء الذين أخذوا عنه:

وأخذ عن ابن جبير عدد كبير من العلماء، منهم: أبو إسحاق بن مهيب، وابن الواعظ، وأبو تمام بن إسماعيل، وأبو الحسن بن نصر بن أبي نصر الفاتح بن عبد الله البجائي، مقيم ببعض بلاد المشرق، وأبو الحسن الشادّي، وأبو سليمان بن حوط الله، وأبو زكريا، وأبو بكر يحي بن عبد الملك بن أبي الغصن، وأبو عبد الله بن حسن بن مجبر، وآباء العباس ابن عبد المؤمن، والنباتي، وأبو محمد بن حسن اللواتي، وابن تامتيت، وابن محمد المروروي، وأبو عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي(٣).

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه، نفس الصفحة، وتراجع سلسلة المشيخة عند ابن الخطيب، المصدر السابق، ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، ص ٥٩٦-٥٩٧. وتراجع سلسلة من روى عليه عند ابن الخطيب: المصدر السابق، ٢/ ٢٣٣-٢٣٤.

٤- وظيفته الإدارية:

التحق ابن جبير مبكرًا بأعمال الدواوين والكتابة كأبيه، وقد بلغ من علو الشأن أن صار كاتبًا لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن عامل الموحدين على غرناطة(١)، وليس غريبًا أن يتبوأ هذه المكانة، فهو كما وصفه ابن الخطيب عند ترجمته له: أنه كان أديبًا بارعًا، وشاعرًا مجيدًا، سُنيًّا فاضلاً، نزيه الهمة، سري النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط(٢).

٥- تصانيفه:

لم يلبث ابن جبير أن اشتهر كاتبًا وشاعرًا صاحبَ ديوان شعر متعدد الرواية، ويبدو أن هذا الديوان قد ضاع مع العديد من المصنفات الأندلسية، ولولا ظاهرة الاقتباس التي شاعت خلال هذه الحقبة التاريخية ما تسنى لنا أن نعرف تراثنا المفقود، ومن حسن الحظ أننا عثرنا على إشارة عند ابن عبد الملك المراكشي تؤكد هذا الاستنتاج، وذلك في قوله «أنه وقف على مجلد متوسط يكون قدر ديوان أبي تمام حبيب ابن أوس، ومنه جزء سماه: "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح" في رثاء زوجه أم المجد، وهو يزيد عن ثلاثمائة بيت، بالإضافة إلى نظمه في فن الموشحات، ومنها جزء سماه: "نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان"، يشتمل على أزيد من مائتي بيت في قطع، وله ترسيل بديع وحكم مستجادة، دوّن ذلك كله، ونُقل عنه(٣)،

---

(١) ورد في الذيل والتكملة "في شبيبته" ص ٦٠٧. بينما ذكر ابن الخطيب "سبتة"، مما يجعلنا نشك في روايته لأنه لم يرد أن تولى أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ولاية سبتة، بل تقلد ولاية غرناطة، (انظر: أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيدق): أخبار المهدي بن تومرت- تحقيق: عبد الحميد حاجيات- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- ط٢، ١٩٨٦ م، ص ١١٠. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر- مؤسسة جمال- بيروت، ١٩٧٩م، ٦/ ٢٣٨. د. عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم- دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩١ م، ص ١٥١، ١٨١، ٣٢١.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، ٢/ ٢٣٤.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، ص ٦٠٨. وانظر: ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٢٣٤.

كما ترك رسائل نثرية لكنها ليست في مستوى الشعر من حيث الشهرة، وقد اعتنى بنقلها كل من ابن عبد الملك المراكشي[1]، وابن الخطيب[2]، والمقري[3].

ثم نزع ابن جبير عن ذلك، وتوجه في رحلات إلى المشرق، "وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته، ونظمه فائق، ونثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير، ورحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار، رحمه الله»[4].

* * *

ثانيًا - رحلاته إلى المشرق وأهميتها:

قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق، منطلقًا من بلاد الأندلس، وحج في كل واحدة منها، فكانت الأولى سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٣ م، والثانية سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م، حيث قوي عزمه على الرحلة بعد شيوع خبر فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي[5]، أما الرحلة الأخيرة فكانت سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م من مدينة "سبتة" بعد موت زوجته عاتكة أم المجد، قام بها بعد أن تقدم به السن، ولم يرجع بعدها إلى الأندلس، بل أمضى بقية عمره متنقلاً بين مكة المكرمة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلاً بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م.

وقد عنى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عناية خاصة بابن جبير، حيث تعد ترجمته له والتعريف به من أوسع التراجم الحديثة له، وقدم تقييمًا مهمًا لرحلته الأولى، وهي التي صنف وذكر مناقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان، وغرائب المشاهد،

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص ٦٠٨-٦٠٩.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٢٣٧-٢٣٩.

(٣) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٤٨٥، ٤٩٤.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٢٣١.

(٥) ابن الخطيب: المصدر الإحاطة، ٢/ ٢٣١-٢٣٢. المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٥.

وبدائع المصانع، وهو كتاب مؤنس ممتع، مثير سواكن النفوس إلى الوفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد المعظمة[1]، وبدت هذه الرحلة لهذا المستشرق على هيئة "يوميات" أي أشبه بما يعرف في الوقت الحاضر "بمذكرات"؛ إذ كان وصفه لما يشاهده أكثر تفصيلاً وتدقيقًا، وذلك في كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م[2]، واختلف حول عنوانه الذي بدا غير معروف بالضبط، فقد جعلها حاجي خليفة في كتابه: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" باسم "رحلة الكناني"، غير أن مقدمة الرحلة تبتدئ بعنوان: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، كما تنتهي بعنوان آخر هو: "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك".

ومما لاشك فيه أن ابن جبير كان رائدًا من رواد فن الرحلات، خاصة بين رحالة المغرب الإسلامي، فهو بحق من أوسع الرحالين العرب فكرًا، وأشملهم ملاحظاتٍ، وأجملهم أسلوبًا، وأنقاهم تعبيرًا، وأسلسهم بيانًا، وأعمقهم استنتاجًا وإدراكًا، وأكثرهم اهتمامًا بالأوضاع السياسية الإسلامية العامة في زمنه، وأشدهم اهتمامًا بتتبع أحوالها، واستقصاء أدوائها وعلاجها[3]، وبالتالي فإن لرحلته أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر الذي عايشه ورآه رأي العين، فهي تقدم وصفًا حيًّا لمصر والشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة نور الدين الزنكي وولده محمود، وصلاح الدين الأيوبي[4]، وقد بلغت من الناحية الفنية ذروة ما وصل إليه نمط الرحلة في الأدب العربي كما ذهب إلى ذلك كراتشكوفسكي[5].

وقد سار على دربه الكثيرون من الرحالة والمؤرخين الذين أتوا بعده، وليس أدل

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي: المصدر السابق، ص ٥٩٧-٥٩٨.

(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي- ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم- دار الثقافة في جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م، القسم الأول، ص ٢٩٩.

(٣) أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص ٣٢٤.

(٤) كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص ٣٠٠.

(٥) كراتشكوفسكي: السابق، ص ٢٩٩.

على ذلك من تهافت المؤرخين، القدامى والمحدثين، على الترجمة له، وتحقيق رحلته والاهتمام بنشرها، فقد قدم ابن الخطيب تقييمًا خاصًّا لرحلته في قوله أنها كانت: «نسيجة وحْدِها، طارت كل مطار»[1].

* * *

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٢٣١.

المبحث الثاني

دمشق ومعالمها الحضارية في رحلة ابن جبير

غادر ابن جبير "غرناطة" في رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس ٨ من شوال سنة ٥٧٨ هـ/ ٣ من فبراير ١١٨٣ م برفقة صديق له من المشتغلين بالطب يدعى أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي(١)، كان يعمل معه في الكتابة بالديوان الموحدي في "غرناطة" Granada، ولم يكونا يقصدان شهود موسم الحج لتلك السنة، فالرحلة كانت تستغرق وقتًا طويلاً، غير أن الحاج الأندلسي كان يخرج مبكرًا في مثل هذا الموعد تحسبًا للطوارئ(٢).

ولم يسلك ابن جبير في رحلته هذه إلى الأراضي الحجازية الطريق البحري الذي كان معظم الرحالة المغاربة يسلكونه للوصول إلى أحد موانئ بلاد الشام ليرافق ركب الحجيج الشامي، نظرًا للوجود الصليبي في بلاد الشام، فاضطر إلى تغيير مساره؛ إذ استهل خط سيره بالمرور بسبتة Ceuta، وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية، ومنها ركب النيل إلى القاهرة، ثم غادرها إلى صعيد مصر، فوصل إلى مرفأ عيذاب، وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر.

ونزل ابن جبير بجدة، ثم اتجه نحو مكة، وجاور فيها حوالي نصف عام، وبعدها مر بالمدينة، وفي عودته من أداء فريضة الحج اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة، وزار بغداد وسامراء فالموصل فحلب فحمص، ومنها إلى دمشق التي وصلها يوم الأربعاء

---

(١) أصله من أندة Onda من أعمال بلنسية Valencia، كان متحققًا بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد، إلى جانب تحصيله الكامل في فنون العلم، وكتب هو الآخر لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وتوفي بمراكش سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م أو سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م. انظر: المقري: المصدر السابق، ٢/ ٣٨٣. رحلة ابن جبير: دار صادر، بيروت ، د. ت، ص ٧.

(٢) د. حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، ص ٤٣١.

غـرة ربيع الآخـر سنة ٥٨٠ هـ/ ١١ من يوليـو سنة ١١٨٤ م[١]، وقد أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضي الإسلامية، وقد كانت سواحل الشام آنذاك تحت قبضة الصليبيين، فأقام في دمشق حتى جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، أي أنه قضى فيها قرابة السبعين يومًا، وهي مدة طويلة إذا ما قورنت بتلك التي قضاها في بغداد، وليس مرد هذه الإقامة إلاّ إلى ذلك الأنس الذي كان الأندلسيون يجدونه في عاصمة الشام، إضافةً إلى التشابه والتقارب في البيئة الطبيعية، وطبائع أهلها المؤنسة، وهذا الأنس مصداق ما يذكره الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية، كما جرت عادة الرحالة المغاربة والأندلسيين ألاّ يطيل المقام في دمشق، أو غيرها من مدن الشام[٢].

والذي نحاول الوصول إليه هو: كيف صور ابن جبير دمشق في رحلته هذه؟ وما هي النواحي التاريخية التي سجلها؟ وما هي المجالات الحضارية التي رصدها واهتم بتقييمها؟ هذا ما سنحاول ذكره في ثنايا هذا البحث.

قدم ابن جبير وصفًا شاملاً لمدن الشام صغيرها وكبيرها، قراها وحواضرها، وقد شملت أوصافه قضايا حضارية، وأخبارًا سياسية تخص هذه البلاد، وقد أولى مدينة "دمشق"-من بين تلك المدن-عناية خاصة بوصف جمال طبيعتها، ورصد ما وقعت عليه عيناه فيها من معالم، فقد وجد فيها العديد من المعالم الحضارية التي أثارت انتباهه وإعجابه في الوقت نفسه، فوقف عندها وقفة متأنية، يصفها وصفًا تفصيليًّا، ويصور روعة بنائها، ويذكر أهميتها التاريخية، وينبه إلى قيمتها الحضارية، ويشيد بمكانتها بين روائع المعالم الأثرية في العالم الإسلامي كله، وكان من بين أهم تلك المعالم، ما يلي:

وصف مدينة دمشق وغوطتها: «جنة المشرق»: هذه هي العبارة الأولى التي بدأ بها ابن جبير وصفه لمدينة دمشق، وهو تعبير ينم عن إعجاب شديد بهذه المدينة الساحرة،

---

(١) رحلة ابن جبير- دار صادر- بيروت - د.ت، ص ٢٣٤.

(٢) د. حسين مؤنس: السابق، ص ٤٣١.

ولا شك أن هذه العبارة لم تنقل لنا شعوره الكامل عند رؤيته لهذه المدينة، وإنما نقلت لنا شيئًا من هذا الشعور وذاك الإحساس بجمال المدينة وسحرها الأخّاذ، ولكي يعبر عن شدة إعجابه بها فقد أسرف في استخدام المترادفات لعلها تعبر عن شيء من مكنون نفسه تجاه هذه المدينة ذات المناظر الرائعة الخلابة، فقال عنها: "جنة المشرق"، و"عروس المدن"، و"خاتمة بلاد الإسلام"، ثم تحدث عن كثرة حدائقها الغناء وما بها من أزاهر ورياحين وبساتين تزينت بها هذه المدينة التليدة أجمل تزيين، وحدثنا عن خصبها وكثرة مياهها، وعندما أراد أن يؤكد لنا ويعبر عن وفرة ما رآه من مياهها قال في تعبير أدبي رائع: "قد سئمت أرضُها كثرةَ الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ"[1].

وإذا اقتبسنا هنا كلامه بنفسه أدركنا مدى إعجابه بتلك المدينة وحبه لها، حيث قال عنها: «جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسيّة من البساتين، وحلت من موضع الحسن بالمكان المكين[2]، وتزينت في منصتها أجمل تزيين»[3].

ثم انتقل بنا للحديث عن أهم بقاع دمشق ألا وهى غوطتها الخصيبة الخضراء، وذكر أنها تقع شرقي دمشق، وقد جال ببصره في جهاتها الأربع، فرأى الخضرة تكسو كل شبر منها، وعبر عن سحرها وجمالها بقول القائلين الذين صدقوا في وصفها حين قالوا: "إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها"[4].

ولقد نقل المقري تعليق أبي جابر الوادي آشي على هذا الوصف في قوله: «لقد

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٣٤.

(٢) في نفح الطيب: (بمكان مكين). انظر: المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٦.

(٣) رحلة ابن جبير، الصفحة نفسها.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٣٥. وراجع وصف الغوطة عند المقري- نقلاً عن ابن سعيد، نفح الطيب، ٢/ ٣٩٢-٣٩٣.

أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوق الأنفس للتطلع إلى صورتها بما أفاد، هذا ولم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب، ولا أزمان فصولها المتنوعات، ولا أوقات سرورها المهنئات، ولقد أنصف من قال: ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه وتلذ الأعين»[١].

* * *

وصف جامع دمشق: أشهر ما في مدينة دمشق، الجامع الأموي الكبير، الذي يعد من أقدم وأكبر مساجد الإسلام. كما يعد من أهم المنجزات المعمارية في بداية الدولة الإسلامية، ولعله أعظم العمائر التي خلفها لنا العصر الأموي، وهو على حد قول سوفاجيه Sauvaget أول نجاح معماري في الإسلام[٢].

وقد أبدى ابن جبير إعجابه الشديد بهذا الجامع وطرازه المعماري الذي يعد تحفة نادرة من تحف وروائع فن العمارة الإسلامي، ورأى أنه أشهر جوامع الإسلام من حيث الحسن وإتقان البناء، وما تميز به تشييده من غرائب وعجائب نادرة، وما وضع في تنميقه وتزيينه من مواد وألوان تبهر العيون وتأسر القلوب بجمالها وروعتها وبهائها، وقد أسرف ابن جبير في وصفه، فاستغرق من تقييده عدة صفحات دون غيره مما رآه من معالم في دمشق الفيحاء[٣].

ولم يكتف ابن جبير بذلك، بل يمدنا بمعلومات تاريخية مهمة عن بناء الجامع في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بأمر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ/ ٧٠٥-٧١٤ م)، فالجامع يعد من آثاره الخالدة، وإحدى عجائب الدنيا، ولا يزال حتى اليوم ناطقًا بعظمة الوليد وجهده الكبير في إخراج هذه التحفة المعمارية

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٧.

(2) Marçais Georges, *L'art musulman*, Paris, 1962, p .19.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٥-٢٤٦. وانظر: المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٧.

النادرة للعالم كله على هذه الصورة البديعة[1].

ومن الإشارات التاريخية عند ابن جبير فيما يتعلق ببناء الجامع الأموي وتنميقه أن بناء هذا الجامع وإخراجه على الصورة التي ظهر بها اعتمد بصورة أساسية على قوة الدولة الأموية وهيبتها وعلاقاتها الخارجية، حيث يشير ابن جبير إلى أن الخليفة الأموي الوليد أرسل إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإرسال اثني عشر ألفًا من الصنَّاع من بلاده إلى دمشق للمساهمة في تشييد هذا الصرح التاريخي، وهدده في رسالته إن هو تأخر عن امتثال أمره، ولكن ملك الروم بادر بالاستجابة لهذا الطلب، وأرسل على الفور ما طلبه منه الخليفة الوليد من الصناع والفعلة[2].

ونستشهد هنا بمقتطفات حول ذلك، حيث يقول عنه: «هو من أشهر جوامع الإسلام حسنًا، وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه... انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفًا من الصناع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف عنه... وبلغت العناية في التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قد مثلت أشجارًا، وفرعت أغصانًا منظومة بالفصوص، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة، وصف كل واصف، فجاء يغشي العيون وميضًا وبصيصًا»[3].

ويستغرق ابن جبير بعد ذلك في وصف الأحجار الكريمة التي دخلت في تنميق وتزيين الجامع، حيث غطيت جدرانه بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، ويحدثنا عن الأصبغة الغريبة التي خُلِطت بها حتى ظهرت في شكل أشجار وأغصان تبهر العيون ويعجز الواصفون عن وصفها[4].

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٥.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٥.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٥.

(٤) ابن جبير: الرحلة، الصفحة نفسها.

- مكان إنشاء الجامع الأموي: أمدنا ابن جبير بمعلومات تاريخية مهمة عن حقيقة المكان الذي بني عليه الجامع الأموي، حيث ذكر أن القائد الكبير أبا عبيدة بن الجراح - عند فتح بلاد الشام - دخل البلد من الجهة الغربية، فانتهى في زحفه إلى نصف كنيسة للنصارى، ثم وقع الصلح بينه وبينهم، وأصبح نصف الكنيسة بأيديهم، وفي مرحلة أخرى من مراحل الفتح دخل خالد بن الوليد البلد عَنْوَةً من الجانب الشرقي وانتهى إلى النصف الثاني، وهو الشرقي، فاحتازه المسلمون، وصيَّروه مسجدًا، وبقي النصف المصارع عليه- وهو الغربي- بأيدي النصارى، وعندما جاء عهد الوليد ابن عبد الملك كانت هذه المنطقة قسمين؛ قسمًا للمسلمين وهو الشرقي، وقسمًا للنصارى وهو الغربي، فأراد الوليد توسعة المسجد فأخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى، وأدخلها فيه، وعوضهم عنه، فلما أبوا ذلك انتزعه منهم قهرًا، وبدأ في هدم بقية الكنيسة بنفسه، وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يُجَنُّ، فلم يهتم الوليد بتلك الخرافات، وبادر بالهدم، وقال: أنا أول من يُجَنُّ في الله، وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون وأكملوا هدمه..."[1].

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز أخرجوا له العهد الذي بأيديهم من الصحابة رضي الله عنهم في إبقائه عليهم فيهم بصرفه إليهم، فأشفق المسلمون من ذلك، ولكن الخليفة عوضهم عنه بمال عظيم أرضاهم به، فقبلوه[2].

- تكلفة إنشاء الجامع الأموي ومساحته: تشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة الأموي الوليد أنفق في بناء الجامع وتنميقه وتزيينه أموالاً طائلة، بل إنه أنفق من

---

(١) انظر هذه التفاصيل التاريخية عند ابن كثير: البداية والنهاية-تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر- هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان- القاهرة- ط ١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م، ١٢/ ٤٠٣-٤٠٤.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٦. وراجع: علي الطنطاوي: الجامع الأموي في دمشق وصف وتأريخ- دار المنارة للنشر والتوزيع- جدة- السعودية - ط١، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ص ٣٢-٣٤، ٣٨-٣٩.

الأموال ما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرتها[1].

وقد حدثنا ابن جبير عن تكلفة الإنشاء، فذكر أنه قرأ في تاريخ ابن المعلَّى الأسدي أن الوليد أنفق عليه مائة صندوق من المال، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار (٢٨,٢٠٠ دينار)، فكان مبلغ الجميع إحدى عشر ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار[2]، كما حدثنا عن طول الجامع ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته وسواريه، وتعد هذه المعلومات وثيقة تاريخية مهمة إذا أردنا أن نتتبع التغيرات التي دخلت على الجامع الأموي في مراحله التاريخية المختلفة من توسعات وغير ذلك.

- الأبواب الرئيسة للجامع الأموي: للجامع أبواب متعددة منها البارزة بمقاييسها وجمالياتها الفنية، ومنها المتواضعة المقاييس والبسيطة الشكل، وتنتشر هذه الأبواب في واجهات المسجد وتتوزع كالتالي:

باب جَيْرُون: وهذا الباب يُعرف اليوم باسم: باب النوفرة، وينفتح في الجهة الشرقية، ويؤدي إلى درب النوفرة، وهو من أقدم أبواب المسجد، ويتألف من باب في الوسط وبابين صغيرين على جانبيه، ويؤدي إلى دهليز يوصل إلى الصحن.

باب البريد: وينفتح في الجهة الغربية، ويؤدي إلى سوق الوراقين ويقابله على الواجهة الأخرى باب جَيْرُون، وهو كذلك مدخل يفضي إلى الصحن ويتألف من بابين صغيرين يتوسطهما باب كبير من خشب مغلف بالنحاس ويحيط به إطار من الرخام. ويتميز بقوس نصف دائري من الرخام تحمله ركائز مستقيمة من الرخام كذلك

---

(١) انظر: د. مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا - دمشق- بيروت، ط ٢، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م، ص ١٢٥. علي الطنطاوي: الجامع الأموي في دمشق، ص ٣٧-٣٨. وقيل إن مقدار ما أنفقه بلغ أكثر من خمسة ملايين ونصف مليون دينار، أو كما قدر بعض المؤرخين بما يساوي خراج الدولة سبع سنين تقريبًا، وقد استغرق البناء حوالي عشر سنوات. انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر- دار الرجاء بالقاهرة - د.ت، ٢/ ١٥٠-١٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٦٠٤-٦٠٥. وراجع: د. على حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية- مكتبة الخانجي بالقاهرة - د.ت، ص ٢٧٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٥.

وتتخلله قمريات زجاجية ملونة، والكل تحميه ظلة خشبية، وقد جدد هذا الباب في بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

باب الزيادة: يقع في الجهة الجنوبية ويؤدي إلى سوق الصاغة والبيمارستان، ويفضي مباشرة إلى فضاء الحرم، وهو باب يختلف في هيئته عن الأبواب السابقة لأنه يتكون من فتحة واحدة، وله دهليز كبير متسع وأعمدة عظام، وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم، وله مرأى رائع، ومنه يُفْضَى إلى دار الخيل، وعن يسار الخارج منه سماط الصفَّارين، وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه، وتُعرف بالخضراء.

باب الناطفيين: يقع في الجهة الشمالية، ويُعرف اليوم باسم: باب الكلاسة، ويؤدي إلى باب الفراديس، وهو كباقي الأبواب مصنوع من خشب ثمين مغلف بالنحاس تعلوه كتابة كوفية وزخارف نباتية، سماه ابن جبير بباب الناطفيين(١)، كما يعرف باسم: باب العمارة(٢).

ولهذه الأبواب دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها إلى سائر المرافق بالجامع، وقد كانت كلها مداخل الكنيسة(٣)، وهي اليوم مزودة بسقايات.

- السقايات حول الجامع الأموي: كان الحصول على المياه العذبة من المهام الشاقّة في كثير من العصور الإسلامية، لذلك أصبح تسبيل الماء العذب، وتسهيل الحصول عليه من وجوه البر التي اهتم بها السلاطين والأمراء، وكذلك الواقفون، وهنا جاء الاهتمام بالسقايات التي يطلق عليها أيضًا "السبل" أو "الأسبلة" التي كان الغرض من إقامتها توفير مياه الشرب للمحتاجين في أماكن محددة داخل المدن، وقد اهتمّ السلاطين والموسرون اهتمامًا كبيرًا بهذا الجانب سواء للناس أم للحيوانات في مختلف

---

(١) الناطف: نوع من الحلوى، والناطفيون هم الذين يصنعون الناطف أو يبيعونه.

(٢) انظر: أحمد فائز الحمصي: روائع العمارة العربية الإسلامية في سورية - دون مكان للنشر، ١٩٨٢م، ص ١٩-٢٠. علي الطنطاوي: الجامع الأموي في دمشق وصف وتأريخ، ص ١٩-٢٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٢-٢٤٤.

المواضع، وإن كانت هذه السقايات تلحق عادة بالمساجد[1].

وقد أمدنا ابن جبير بمعلومات مهمة عن السقايات المحيطة بالجامع الأموي من جهاته الأربع، فقال: "ويستدير بهذا الجامع المكرّم أربع سقايات، في كل جانب سقاية، كل واحدة منها كالدار الكبيرة، محدَقة بالبيوت الخلائية، والماء يجري في كل بيت منها، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله..."[2].

والسقايات الأربعة هي كالتالي:

الأولى: سقاية في دهليز باب جَيْرُون: وهي أكبر السقايات الأربعة.

الثانية: سقاية في دهليز باب الناطفيين، بإزاء المعلّمين.

الثالثة: سقاية عن يسار الخارج من باب البريد.

الرابعة: سقاية عن يمين الخارج من باب الزيادة[3].

ثم يعبّر ابن جبير عن كثرة السقايات في دمشق كلها، فيقول: والبلد كله سقايات، قلما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية، والمرافق به أكثر من أن توصف..."[4].

- صحن الجامع الأموي وقبابه: تحدث ابن جبير عن صحن الجامع الأموي وأبدى إعجابه الشديد به، فقال: "ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها"، وذكر أن هذا الصحن مكان لاجتماع أهل البلد، وأنه "متفرجهم ومتنزههم كل عشية،

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ (الخطط المقريزية)- دار صادر- بيروت، د. ت، ٢/ ٣٠٩، وقد أورد أمثلة وافرة لهذا الجانب.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٥.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٤) ابن جبير: السابق، ص ٢٤٦.

تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق إلى غرب، من باب جَيْرُون إلى باب البريد، فمنهم مَن يتحدث مع صاحبه، ومنهم مَن يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب وروجع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة، ثم ينصرفون، ولبعضهم بالغداة مثل ذلك...."[1].

ثم يتحدث عن القباب الموجودة في هذا الصحن، فيقول، "وفي الصحن ثلاث قباب"، وقد ذكرها على النحو التالي:

* القبة الأولى: القبة الغربية وتسمى قبة عائشة أو الخزنة الرائعة (قبة المال)؛ لأن مال الجامع كان يختزن بها[2]، وهي أكبر القباب الثلاث كما ذكر ابن جبير[3].

وتتكون هذه البناية ذات الثمانية أضلاع من مداميك حجرية ومن الآجر، وهذه الطريقة في البناء كانت منتشرة في العمارة البيزنطية(٤)، وتعلوها قبة مغطاة بألواح من الرصاص، وعروق خشبية طولية وعرضية، وذلك لتثبيت ألواح الرصاص[5]، وتقوم هذه القبة على ثمانية أعمدة رخامية جميلة التيجان ينطلق أساسها من الصحن ويبلغ ارتفاعها عشرة أمتار[6].

وقد زينت هذه القبة بالفسيفساء الملونة والمذهبة. ولقد أسهم المؤرخون في وصف جمالها وغرابة صنعها كابن جبير الذي قال إنها: «مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة كأنها الروضة حُسنًا، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة»[7].

وتبقى هذه القبة من الآثار الرائعة في المسجد الأموي خاصة أنها تعد من لدن بعض مؤرخي الفنون والعمارة الإسلامية ابتكارًا جديدًا لم يوجد قبل قيام الطراز

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٠.

(٣) ابن جبير: السابق، الصفحة نفسها. وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٦٠٠.

(4) Ktharina Otto-Dorn, *L'architecture de l'islam*, édition Albin Michel, Paris, 1967, p. 25.

(٥) فريد محمود شافعي: العمارة العربية الإسلامية، الرياض، ١٩٨٢م، ص ١٩٩.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٠.

(٧) ابن جبير: السابق، الصفحة نفسها.

العربي الإسلامي[1].

❁ القبة الثانية: وتوجد في الجهة الشرقية، وهي أصغر من الأولى وهي مثمنة الشكل ومغطاة بألواح من الرصاص، تعلوها كرات نحاسية؛ وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام على هيئة القبة الكبيرة[2]. وتسمى هذه القبة قبة زين العابدين، وكانت تسمى قبة يزيد، وتسمى الآن قبة الساعات؛ لأن بها ساعات صارت مقرًا للمؤقتين.

❁ القبة الثالثة: وتتوسط الصحن، وشكلها الهندسي مغاير للقباب السابقة، أُنْشِئَت في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فهي "مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع إلصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام"، ويزيدنا ابن جبير توضيحًا عن هذه القبة فيقول «وتحتها شباك حديد مستدير، وفي وسطه أنبوب من الصفر (النحاس) يمج الماء إلى علو، فيرتفع وينثني كأنه قضيب لُجَيْن، يَشْرَهُ الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافًا واستحسانًا، ويسمونه قفص الماء»[3]، وقد ظل هذا الوضع قائمًا وظلت هذه العادة مستمرة حتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، حيث ذكر الرحالة ابن بطوطة نفس ما ذكره ابن جبير عن هذه القبة، وعن عادة الناس في الشرب تحتها[4].

يتضح من وصف ابن جبير أن هذه القبة تتخذ شكلاً مثمنًا، وتقوم على ثماني سواري رخامية متفاوتة الأحجام تحمل عقودًا منكسرة فقراتها، يتناوب فيها الرخام الملون الناصع، وتعرف هذه القبة بقبة النافورة أو قبة البركة، وفضلاً عن وظيفتها

---

(١) فريد محمود شافعي، العمارة العربية الإسلامية، ص ١١.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٠.

(٣) ابن جبير: السابق، الصفحة نفسها.

(٤) انظر: رحلة ابن بطوطة - دار الكتب العملية- بيروت، ١٩٨٧ م، ص ١٠٨. وقد أشار الشيخ علي الطنطاوي في كتابه عن الجامع الأموي أنه سمع أن هذه السقاية قد أزيلت ولم يعد لها وجود. انظر: علي الطنطاوي: الجامع الأموي في دمشق وصف وتأريخ، ص ٢٤-٢٥.

الأساسية فقد زادت الصحن لمسة جمالية.

* * *

- الأنشطة الاجتماعية والتعليمية في الجامع الأموي: تحدث ابن جبير عن بعض الأنشطة الاجتماعية والتعليمية المعهودة في الجامع الأموي في زمنه، فأشار إلى أنه شاهد بالجامع الأموي عددًا من الزوايا التي يتخذها الطلبة للنسخ والدرس، أو الانفراد عن ازدحام الناس، وذكر أنها من جملة مرافق الطلبة التي تخصص للإنفاق عليهم، وأن للجامع ثلاث صوامع، وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام. والأهم من ذلك أنه تحدث عن حلقات التدريس للطلبة، والمدرسين الذين يقومون بهذه المهمة الجليلة، وتُجرى عليهم جرايات واسعة، وأن للمالكية زاويةً للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها الطلبة المغاربة للتعلم، ولهم إجراء معلوم[(١)].

* * *

وصف كنيسة مريم بدمشق: وكما افتتن ابن جبير بالمعالم الدينية الإسلامية فوصفها وصفًا تفصيليًا، وأحاط بجوانبها المعمارية إلمامًا كاملاً واضحًا، فقد أولى المعالم المسيحية الاهتمام نفسه، مما يبين عقليته المنصفة وبعده عن التعصب الديني البغيض، فقد وصف كنيسة مريم التي كانت بداخل دمشق فحدد مكانتها وموقعها عند المسيحيين فقال: «وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تُعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفيلة البناء[(٢)]، تتضمن من التصاوير أمرًا عجيبًا، تبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٩-٢٤٥.

(٢) عبارة "حفيلة البناء" تصوِّر لنا مدى ضخامة هذه الكنيسة، والمبالغة الشديدة في تحصينها وارتفاع أسوارها، ومدى الإنفاق الكبير الذي أُنفق عليها، كما نشاهده اليوم في معظم الكنائس الموجودة داخل القاهرة وخارجها.

بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم فيها»[1]. وفي هذا النص دلالة على مدى سماحة المسلمين في تعاملهم مع الآخر.

* * *

أبواب دمشق: حدثنا ابن جبير كذلك عن أبواب دمشق التاريخية، وذكر منها ثمانية أبواب على النحو التالي:

باب شرقي وفيه المنارة البيضاء التي قيل إن عيسى عليه السلام ينزل عندها، حيث ورد بالأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق، ويقع هذا الباب – كما يظهر من اسمه – في الجهة الشرقية من سور المدينة، وينتهي عند الشارع المستقيم الواصل بينه وبين باب الجابية[2].

باب توما، وهو يلي باب شرقي، ويقع أيضًا في حيز الشرق، وبصورة أدق، فإنه يحتل الجهة الشمالية الشرقية من سور المدينة[3].

باب السلامة: يقع إلى الشرق من باب الفراديس على منعطف من السور يجعل

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٥.

(٢) ابن جبير: السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥. وقد بني هذا الباب في العهد الروماني أوائل القرن الثالث للميلاد، وجدد في عهد نور الدين زنكي سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م، فأضاف إليه من داخله قوس بعضادتين، كما جدد بناء المئذنة في عهد السلطان العثماني مراد الثالث قبيل سنة ٩٩٠ هـ/ ١٥٨٢ م، ويتألف الباب من ثلاث فتحات أكبرها أوسطها، وقد سدت هذه الفتحة والفتحة الجنوبية في القرون الوسطى، ولم تبق إلا الفتحة الشمالية التي تعلوها صفوف من أحجار السور، ومن أهم الأحداث التي وقعت عند هذا الباب: دخول خالد بن الوليد منه إلى دمشق عند الفتح الإسلامي، ودخول عبد الله بن علي منه حين احتل العباسيون دمشق.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٥. وهذا الباب في الأصل باب روماني نُسب إلى أحد عظماء الروم واسمه (توما)، وكانت عنده كنيسة حولت إلى مسجد بعد الفتح، وترتفع على الباب مئذنة، كما توجد باشورة (سوق صغيرة) ذات حوانيت يمكن إغلاقها ليتمكن أهلها من البقاء فيها عند حدوث الغارات أو محاصرة المدينة، وقد أعيد بناء هذا الباب بشكل جيد زمن الملك الناصر داوود سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م، وأزيل المسجد الذي كان عنده في بداية العهد الفرنسي، ويعد باب توما نموذجًا فريدًا من نماذج المنشآت العسكرية الأيوبية المتميزة، ويروى أن عمرو بن العاص نزل عليه يوم الفتح الإسلامي لدمشق.

اتجاهه نحو الشرق[1].

باب الفراديس: يقع في الجهة الشمالية، وسمي بالفراديس (جمع فردوس) لكثرة البساتين أمامه، ويسمى أيضًا باب العمارة؛ لوجوده في حي العمارة[2].

باب الفرج: يقع في الجهة الشمالية من سور المدينة[3].

باب النصر: ويقع في الجهة الغربية من سور المدينة[4].

باب الجابية: يقع غرب سور المدينة[5].

باب الصغير: ويقع بين الغرب والقبلة، وسُمي الباب الصغير؛ لأنه أصغر أبواب دمشق[6].

---

(١) اختلفت الروايات حول أصل هذا الباب، فقال البعض إنه من أصل روماني، بينما لم يستبعد آخرون أن يكون نور الدين محمود أول من أنشأه سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، ثم تهدم فجدده الملك الصالح أيوب سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م، وهو ثاني باب أيوبي أنشئ بعد باب توما، ويشبهه بقوسه وشرفتيه.

(٢) وقد أعاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إنشاء هذا الباب سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤١ م، وهو موجود حاليًا في سوق العمارة، تحيط به المحال التجارية من جهته الخارجية والمنازل من جهته الداخلية.

(٣) يقع هذا الباب في الجهة الشمالية من سور المدينة بين العصرونية والمناخلية، فلذلك يسمى أحيانًا باب المناخلية، كما يسمى باب البوابجية، وقد أنشأه نور الدين محمود، وسمي باب الفرج لما وجد الناس فيه من الفرج باختصار المسافة في الدخول والخروج من المدينة، وقد جُدد الباب أيام سيف الدين بن أبي بكر بن أيوب سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م، وهو باب مزدوج.

(٤) لم يعد باب النصر موجودًا الآن، وكان يقع في الجهة الغربية لسور المدينة، جنوب القلعة مباشرة من سوق الأورام (بداية سوق الحميدية حاليًا من جهة شارع النصر)، وقد أنشأه نور الدين محمود ثم هُدم أيام الوالي العثماني محمد رشدي باشا الشرواني سنة ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٣ م.

(٥) اختفى باب الجابية حاليًا، وكان يقع غرب سور المدينة عند نهاية السوق الطويل (الشارع المستقيم) مواجهًا الباب الشرقي في الطرف الثاني من الشارع، وكان يتألف من ثلاث فتحات أكبرها الوسطى، وسمي بهذا الاسم؛ لأنه يؤدي إلى قرية الجابية التي تقع في الجولان، وقد أعاد نور الدين محمود إنشاءه سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م، ثم جدده ناصر الدين داوود بن عيسى، ويقال إن أبا عبيدة بن الجراح دخل دمشق من باب الجابية صلحًا عند الفتح الإسلامي لها.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٢٥٤-٢٥٥. وقد أنشئ هذا الباب صغيرًا لخطورة الجهة الجنوبية على دمشق، فهي=

باب كيسان: هذا هو الباب التاسع الذي لم يره الرحالة ابن جبير، حيث ذكر أنه رأى لدمشق ثمانية أبواب خلال فترة زيارته لها، هي الأبواب الثمانية التي ذكرناها آنفًا، وهذا الباب واحد من أبواب مدينة دمشق القديمة الأصلية السبعة التي بُنيت في الفترة الرومانية، أما اسم كيسان فينسبه البعض إلى كيسان مولى معاوية بن أبى سفيان الذي أعتقه بعد نزوله على الباب إبان الفتح الإسلامي لدمشق سنة ١٤ هـ/ ٦٣٥ م، وذكر آخرون أنه منسوب إلى كيسان الذي كان مولى لبشر بن عبادة بن حسان الكلبي.

وقد بقي هذا الباب مستخدمًا إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي عندما قام السلطان نور الدين زنكي بسدِّه تمامًا وفتح بدلاً منه باب الفرج، وهذا هو الذي منع ابن جبير من رؤية هذا الباب، حيث كان مسدودًا خلال فترة زيارته لدمشق، ثم أُعيد فتح هذا الباب وترميمه زمن المماليك سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣ م في عهد الملك الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني، أيام نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، واشتهر آنذاك باسم "الباب القبلي"(١).

* * *

المدارس في دمشق: من أهم المعلومات التي قدمها لنا ابن جبير عن المدارس أنه ذكر على سبيل الإحصاء أنه يوجد في دمشق نحو عشرين مدرسة(٢)، وذكر أن هذه

= مفتوحة ولا توجد أمامها حواجز من الأنهار والأشجار كالجهة الشمالية، كما يطلق عليه أيضًا (باب الشاغور)، وقد جدده نور الدين محمود، وتوجد عليه كتابة بالخط الكوفي تشير إلى أن نور الدين رفع حق التسفير عن التجار الذاهبين إلى العراق والقافلين منها، وقد جُدد الباب ثانية زمن المماليك على يد السلطان عيسى بن الملك العادل، ومن أهم ما وقع على هذا الباب من حوادث تاريخية: نزول يزيد بن أبي سفيان عليه عند الفتح الإسلامي، كما دخل منه الملك المغولي (تيمور لنك) سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م.

(١) باب كيسان من أبواب السور الروماني، ويقع حاليًا في ساحة (البيطرة) نهاية شارع ابن عساكر من الشرق، وقد رمم مجددًا في عهد الانتداب الفرنسي، وحاليًا أصبح الباب مدخلاً لكنيسة القديس (بولس) التي شيدت عام ١٩٣٩ م، وتروي المصادر التاريخية أن هذه الكنيسة بنيت في المكان نفسه الذي تم فيه إنزال (بولس) بسلة من فوق السور، فتمكن من الهرب من بطش الرومان واليهود والوصول إلى أوروبا، حيث نشر الديانة المسيحية.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٥.

المدارس من مفاخر الإسلام لتنظيماتها المعمارية الرائعة والأوقاف الجليلة التي توقف عليها، ولشدة إعجابه بمدرسة نور الدين محمود التي عُرفت باسم (المدرسة النورية الكبرى)، رأى أنها من أحسن مدارس الدنيا منظرًا، بل هي قصر من القصور الأنيقة، وأمدنا بتفصيلات مهمة عن تنظيماتها المعمارية، فقال عنها: "ومن أحسن مدارس الدنيا منظرًا مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره، نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذَرْوَان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين، رحمه الله"(١).

كما تحدث أيضًا عن المدرسة الشافعية، وحدد موضعها فقال: "وعن يمين الخارج أيضًا من باب البريد مدرسة للشافعية، في وسطها صهريج يجري الماء فيه، ولها مطاهر (أماكن للوضوء).."(٢)، حيث كان المسجد وما يلزمه من وجود أماكن للوضوء من الملحقات الأساسية للمدرسة وتنظيماتها في العصور الوسطى.

ومعلومات ابن جبير عن هذه المؤسسات التعليمية تعد من أهم الوثائق التي يرجع إليها المؤرخ للتعرف على هذه المدارس وتنظيماتها المختلفة.

* * *

قبور الشهداء: ومن المعلومات المهمة التي أمدنا بها ابن جبير، ولا نكاد نعثر عليها في كثير من المصادر التاريخية التقليدية، حديثه عن قبور الصحابة والتابعين في

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٦. ونظرًا للنهضة العلمية الكبيرة التي شهدها عهد السلطان نور الدين محمود لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين محمود خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفية لأنه صرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورها، وصارت النهضة العلمية والفكرية في عهده مجالاً لمديح الشعراء وثنائهم. انظر: د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي- دار الوفاء- المنصورة- ط٣، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، ص ٢١٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٤.

دمشق، فذكر أنه تقع غربي دمشق جبّانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين رضي الله عنهم، فذكر أسماءهم ووصف قبورهم وحدد مكانها بدقته المعهودة، ورصد بقلمه كل ما كان مكتوبًا عليها، وما طرأ عليها من تغيير، وعلاقة الناس بها، وقيمتها الدينية والروحية في المجتمع الدمشقي آنذاك.

ومن أشهر قبور الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – التي ذكرها ابن جبير واهتم بها: قبر أبي الدرداء(١)، وقبر زوجته أم الدرداء(٢) رضي الله عنهما(٣).

كما وجد في المكان نفسه لوحاتٍ رخامية مكتوبًا عليها: "في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضي الله عنهم"، فكان منهم: قبر فضالة بن عبيد(٤)، وسهل بن

---

(١) هو الصحابي الجليل أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس، وقيل: عويمر بن عامر وقيل: ابن عبد الله، وقيل: ابن ثعلبة بن عبد الله الأنصاري الخزرجي، الإمام القدوة، حكيم هذه الأمة، قاضي دمشق، وسيد القراء بها، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث، معدود فيمن تلا على النبي صلى الله عليه وسلم، ومعدود فيمن جمع القرآن في حياته صلى الله عليه وسلم، وتصدر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت داره بدمشق بباب البريد، ثم صارت في دولة السلطان صلاح الدين تُعرف بدار الغَزِّي، توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء-تحقيق: شعيب الأرناؤوط-مؤسسة الرسالة-بيروت-ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م، ٢/ ٣٣٥-٣٥٣. ابن سعد: الطبقات الكبير-تحقيق: علي محمد عمر-مكتبة الخانجي بالقاهرة-ط ١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م، ٤/ ٣٥١، ٩/ ٣٩٥. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب-تحقيق وتعليق: محمود الأرناؤوط-أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط-دار ابن كثير-دمشق-بيروت-ط ١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ١/ ١٩٦.

(٢) هي الصحابية الجليلة أم الدرداء رضي الله عنها، واسمها: هُجَيْمة وقيل: جُهَيْمة بنت حيي الأوصابية أو الوَصّابية (وَصّاب بطن من حمير) الدمشقية، المعروفة بأم الدرداء الصغرى، من الصحابيات العالمات الفقيهات، روت علمًا جمًا عن زوجها الصحابي أبي الدرداء وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، طال عمرها واشتهرت بالعلم والعمل والزهد، وأدركت زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ/ ٦٨٥-٧٠٥ م) وكانت كثيرًا ما تجلس معه في صخرة بيت المقدس أو في مؤخر المسجد بدمشق، وقيل إنها حجَّت سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ٢٧٧-٢٧٩. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ٣٣٣.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥١.

(٤) هو الصحابي الجليل فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن جَحْجَبَى الأنصاري الأوسي، يكنى أبا محمد، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل بيعة الرضوان، له عدة أحاديث، وقد روى عن =

الحنظلية[1]، وهما من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وقبر خال (أمير)[2] المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه، وذكر أن قبره مسنّم (مرتفع) في الموضع المذكور[3]، كما ذكر أنه قرأ في فضائل دمشق أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهما مدفونة بدمشق[4].

= عمر وعن أبي الدرداء رضي الله عنهما، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الشام فسكنها وكان قاضيًا بها، وولي الغزو لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان ينوب عنه في الإمرة إذا غاب، توفي سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٢ م، وقيل سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٨ م. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء- تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي-أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت-ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م، ٣/ ١١٣-١١٧. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٤/ ٣٠٧، ٩/ ٤٠٥. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب-تحقيق: علي محمد البجاوي-دار الجيل-بيروت- د.ت، ٣/ ١٢٦٢- ١٢٦٣. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ٢٥٢.

(١) هو الصحابي الجليل سهل بن الحنظلية، وهو سهل بن عمرو، وقيل: سهل بن الربيع بن عمرو، وقيل: سهل بن عقيب بن عمرو بن عدي بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو الأنصاري، من بني حارثة، ويقال: الحنظلية أمه، وقيل: أم أبيه، وقيل: أم جده، شهد بيعة الرضوان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشاهد كلها إلا بدرًا، نزل الشام وسكن دمشق، وكانت داره بها عند حجر الذهب، وكان متعبدًا متوحدًا لا يخالط الناس، توفي في صدر خلافة معاوية ولا عقب له. انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ٦/ ٩٤. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٩/ ٤٠٤. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢/ ٦٦٢.

(٢) ذكر ابن جبير كلمة (أمير) بين كلمتي (خال) و(المؤمنين)، ولعله سهو من الناسخ أو ما شابه ذلك، والصحيح أن يقال: (وخال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه)، فابن جبير هنا يقصد الكلام عن قبر أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان معروفًا بلقب (خال المؤمنين)؛ لأن أخته (أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها) كانت زوجًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهي من أمهات المؤمنين، وبذلك يكون أخوها خالاً للمؤمنين. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ١١/ ١٤٦-١٤٧. ويقول الذهبي: "وقد كان لأم حبيبة حُرمة وجلالة، ولاسيما في دولة أخيها، ولمكانه منها قيل له: خال المؤمنين". الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢/ ٢٢٢. وقد توفي معاوية رضي الله عنه بدمشق في رجب سنة ٦٠ هـ/ ٦٧٩ م، وهو ابن سبع وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين سنة، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير، ودخل قبره اليوم في مقبرة الباب الصغير-إحدى مقابر دمشق- وهو ما زال معروفًا هناك، وقد جُدِّد بناؤه في السنوات الأخيرة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣/ ١١٩-١٦٢. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٦/ ١٥، ٩/ ٤١٠. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ٢٧٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥١.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥١. ترجم الذهبي لأم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، وذكر أنها=

وكذلك وجد قبر واثلة بن الأسقع(1) من أهل الصفة، وفي الجهة التي تلي هذا الموضع وجد ابن جبير لوحة أخرى من الرخام مكتوب عليها" "هذا قبر أوس بن أوس الثقفى"(2)، وحول هذا الموضع المذكور، وعلى مقربة منه يوجد قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم(3)، وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه(4).

* * *

= قدمت دمشق زائرة لأخيها معاوية، ثم ذكر أنه يقال: قبرها بدمشق، ورد على ذلك بقوله: وهذا لا شيء، بل قبرها بالمدينة، وإنما التي بمقبرة باب الصغير: أم سلمة أسماء بنت يزيد الأنصارية، وكانت وفاة أم حبيبة رضي الله عنها سنة ٤٤ هـ/ ٦٦٤ م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢/ ٢١٨-٢٢٣. وانظر: ابن سعد: الطبقات الكبير، ١٠/ ٩٤-٩٨. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ٢٣٦.

(١) هو الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع بن كعب بن عامر، وقيل: واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب الليثي، من أهل الصفة، أسلم سنة ٩ هـ/ ٦٣٠ م وشهد غزو تبوك، وكان من فقراء المسلمين رضي الله عنه، وله عدة أحاديث، سكن دمشق، وله مسجد مشهور بها، وأقام في قرية البلاط من غوطة دمشق الشرقية غربي زبدين، توفي سنة ٨٣ هـ/ ٧٠٢ م وهو ابن مائة وخمس سنين، وقيل: توفي سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م وهو ابن ثمان وتسعين سنة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣/ ٣٨٣-٣٨٧. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٥/ ١٢٨-١٣٠، ٩/ ٤١١-٤١٢.

(٢) هو الصحابي الجليل أوس بن أوس الثقفي، وقيل: أوس بن حذيفة، نسبه البعض إلى أهل الصفة وهو وهم، فإنه قدم وافدًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر عهده، وهو من بني مالك (بطن من ثقيف) الذين أنزلهم النبي صلى الله عليه وسلم القبة لا الصفة، وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير حديث، ولا يُحفظ عنه من حال أهل الصفة شيء، ولم نقف على تاريخ وفاته. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبير، ٨/ ٧٢. ابن الأثير: أسد الغابة، ١/ ١٦٤.

(٣) هو الصحابي الجليل بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأمه حمامة، من السابقين الأولين، يكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا عبد الكريم، وقال بعضهم: يكنى أبا عمرو، كما قيل إنه حبشي، وقيل من مولَّدي الحجاز، توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بداريًا من دمشق سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م، وقيل سنة ٢١ هـ/ ٦٤١ م، وهو ابن ثلاث وستين، وقيل: ابن سبعين سنة، ودفن عند الباب الصغير بمقبرتها. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء-تحقيق: حسين الأسد، ١/ ٣٤٧-٣٦٠. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/ ١٧٨-١٨٢. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٩/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥١.

المشاهد في دمشق: كما لفت نظر ابن جبير عدد كبير من مشاهد الأنبياء والصحابة والتابعين الموجودة في دمشق، وكان أولها: "مشهد رأس يحي بن زكرياء عليه السلام، وهو مدفون بالجامع المكرّم، في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلّور مجوَّف، كأنه القدح الكبير، لا يُدْرَى أم من زجاج عراقيّ أم صوريّ هو أم من غير ذلك"(١).

وكان مما رآه ابن جبير أثناء زيارته لدمشق مدافن الأنبياء عليهم السلام، وقد حدد لنا موضع هذه المدافن وعددها كما كان يقال وقتذاك في دمشق، فقال: "وفي الجهة الشمالية من الجامع المبارك، على مقربة منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبي، وقيل: سبعون ألف شهيد، وأن الأنبياء المدفونين به سبعمائة نبيٍّ، والله أعلم"(٢).

ثم قال: "وخارج هذا البلد الجبّانة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين، وبركتها شهيرة، وفي طرفها مما يلي البساتين وهدة (مكان منخفض) من الأرض متصلة بالجبّانة، ذُكر أنها مدفن سبعين نبيًّا، وعصمها الله ونزهها من أن يُدْفن فيها أحد، والقبور محيطة بها، وهي لا تخلو من الماء حتى صارت قرارة له، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها"(٣).

وكان من أهم وأكبر المشاهد التي رآها ابن جبير أثناء زيارته وتطوافه بدمشق، مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قال: ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم، رجالاً ونساءً، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم، ولها الأوقاف الواسعة، ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه"(٤).

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٦. وانظر عنه: ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٥٩٣-٥٩٤. وراجع: علي الطنطاوي: الجامع الأموي في دمشق، ص ٢٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٧.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٧.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٢.

وهنا تظهر الحاسة التاريخية النقدية عند ابن جبير، حيث يذكر أنه من المعروف تاريخيًا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يدخل دمشق قط، ولم يستشهد بها، فكيف يكون له مشهد بها، فيقول: "ولم يُذكر عن عليٍّ رضي الله عنه أنه دخل قط هذا البلد"(١). ولعل هذا من اختراعات الشيعة، فاختراعاتهم كثيرة لا تحصى ولا تُعد.

ثم يمضي في تعداد بقية المشاهد التي رآها للصحابة رضوان الله عليهم، فكان من بينها: مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج(٢)، فقال: "ومن هذه المشاهد المكرّمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بقرية تُعرف بالمَنِيحة شرقي البلد (دمشق)، وعلى مقدار أربعة أميال منه، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء، والقبر في وسطه، وعند رأسه مكتوب: هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٣).

ثم يتحدث عن بعض مشاهد أهل البيت الكرام، فيذكر منها: مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب(٤) رضي الله عنهما، ويذكر لنا اسمها الحقيقي، ولماذا كُنيت بأم

---

(١) ابن جبير: السابق، الصفحة نفسها.

(٢) هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبي حَزِيمة (بالحاء المهملة) بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، يكنى أبا ثابت، وقيل: أبا قيس، والأول أصح، الكبير الشريف سيد الخزرج، له أحاديث يسيرة، سكن دمشق، ومات بحَوْرَان منها سنة ١٥ هـ/ ٦٣٦ م، وقيل: سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧ م، قيل: قُتل سعد بن عبادة بالشام، رمته الجن بحَوْرَان، وقبره بالمَنِيحَة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١/ ٢٧٠-٢٧٨. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٢/ ٥٩٤-٥٩٩. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ١٦٢.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٤) هي أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، الهاشمية، شقيقة الحسن والحسين رضي الله عنهما، ولدت في حدود سنة ٦ هـ/ ٦٢٧ م، ورأت النبي صلى الله عليه وسلم ولم ترو عنه شيئًا، تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وولدت له زيدًا، وقيل: ولدت له رقية، فلما توفي تزوجها عون بن جعفر بن أبي طالب، فلما توفي تزوجها أخوه محمد، فلما مات تزوجها أخوه عبد الله فماتت عنده، وقد توفيت مع ابنها زيد في يوم واحد، وصلى عليهما عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولم أقف على تاريخ الوفاة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣/ ٥٠٠-٥٠٢. ابن سعد: الطبقات الكبير، ١٠/ ٤٢٩-٤٣١.

كلثوم، ويحدد لنا بدقة موضع مشهدها وصفته وأوقافه وموقف العامة منه، فيقول: "ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ويقال لها زينب الصغرى، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لشبهها بابنته أم كلثوم رضي الله عنها، والله أعلم بذلك، ومشهدها الكريم بقرية قبليّ (جنوب) البلد تُعرف براوِيَة على مقدار فرسخ، وعليه مسجد كبير، وخارجه مساكن، وله أوقاف، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم"، ثم يقول: "مشينا إليه وبتنا به وتبرّكنا برؤيته، نفعنا الله بذلك"[1].

وتحدث عن عدد آخر من قبور أهل البيت والتابعين، وعبَّر عن كثرة هذه القبور، فقال: "وبالجبّانة التي بغربيّ البلد (دمشق) من قبور أهل البيت كثير رضي الله عنهم، منها قبران عليهما مسجد يقال إنهما من ولد الحسن والحسين رضي الله عنهما، ومسجد آخر فيه قبر يقال إنه لسُكينة بنت الحسين[2] رضي الله عنهما، أو لعلها سُكينة أخرى من أهل البيت.."[3].

ثم أمدنا بمعلومات أخرى مهمة عن قبور عدد من التابعين المشهورين، فتحدث بشغف وعناية عن قبر أبي مسلم الخولاني[4]، وقبر أبي سليمان الداراني[1]، محددًا مكان

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٣.

(٢) هي أميمة، وقيل: أمينة وقيل: آمنة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعًا، و(سُكينة) لقب لقبتها به أمها الرباب ابنة امرئ القيس بن عدي، تزوجها ابن عمها عبد الله بن الحسن الأكبر، فقتل مع أبيها قبل الدخول بها، فتزوجها أمير العراق مصعب بن الزبير بن العوام وغيره، وكانت شهمة مهيبة وجمالها وحسن خلقها مشهور، توفيت سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء-تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ٥/ ٢٦٢-٢٦٣. ابن سعد: الطبقات الكبير، ١٠/ ٤٤٠-٤٤١. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٢/ ٨٢.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٣.

(٤) هو أبو مسلم الخولاني الداراني، سيد التابعين وزاهد العصر، اسمه على الأصح: عبد الله بن ثُوَب، وقيل: عبد الله ابن ثواب، قدم من اليمن وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، ودخل المدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وحدَّث عن عدد من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وغيرهم، هاجر إلى الشام واستقر بها، ونعته الذهبي بريحانة الشام، وتوفي بدمشق منها سنة ٦٢ هـ/ ٦٨١م في خلافة يزيد بن معاوية. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء-تحقيق: مأمون الصاغرجي، ٤/ ٧-١٤. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٩/ ٤٥١. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ٢٨١-٢٨٢.

وجود القبرين بدقة وعناية، فقال: "وبقرية داريّة قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه، وعليه قبة هي علامة القبر، وبها أيضًا (أي بالقرية المذكورة نفسها) قبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنه، وبين هذه القرية وبين البلد (يعني دمشق) مقدار أربعة أميال، وهي لجهة الغرب منه"(٢).

كما تحدث عن قبر أُويس القرني(٣) وقبور خلفاء بني أمية، محددًا مواضع هذه القبور، فقال: "ومن المشاهد المباركة أيضًا، بالجبّانة الغربية وبمقربة من باب الجابية، قبر أويس القرني رضي الله عنه، وقبور خلفاء بني أمية رحمهم الله، يقال إنها بإزاء باب الصغير بمقربة من الجبّانة المذكورة، وعليها اليوم بناء يُسكن فيه"(٤).

ويلفت انتباهنا تلكم الأمانة العلمية التي تحلى بها ابن جبير خلال رحلته ومعاينته المعالم الحضارية في دمشق وغيرها من عواصم الإسلام، فما رآه رأي العين وعاينه بنفسه ذكر لنا أنه عاينه بنفسه ورآه بأم عينه، وما لم يعاينه بنفسه ذكر أنه لم يعاينه وإنما سمع خبره أو وُصف له من الناس، فعندما تحدث عن قبري شيث ونوح عليهما السلام بمنطقة البِقاع أخبرنا أنه لم يعاين هذين القبرين بنفسه ولم يرهما رأي العين وإنما وصفهما له بعض من لقيهم في رحلته، فقال: "ومن المشاهد الكريمة التي لم نعاينها

---

(١) هو الزاهد القدوة أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد، وقيل: عبد الرحمن بن عطية، وقيل: ابن عسكر العنسي الداراني، ولد في حدود الأربعين ومائة، وكان عديم النظير زهدًا وصلاحًا، وله كلام رفيع في التصوف والمواعظ، نسبته إلى (داريًا) قرية بغوطة دمشق، أو (داران)، توفي سنة ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م، وقيل: ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م، والأول هو الصحيح. انظر: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣/ ٢٨-٢٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٣.

(٣) هو أويس بن عامر بن جَزء بن مالك القرني المرادي اليماني، يكنى أبا عمرو، القدوة الزاهد ذو المناقب المشهورة وسيد التابعين في زمانه، وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وروى عنه قليلاً، كما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال عنه الذهبي: "كان من أولياء الله المتقين ومن عباده المخلَصين"، قاتل مع عليٍّ في وقعة (صفين) واستشهد فيها سنة ٣٧ هـ/ ٦٥٧ م. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ١٩-٣٣. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام-تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ م، ٢/ ٣١٣-٣١٦. ابن سعد: الطبقات الكبير، ٨/ ٢٨١-٢٨٥. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١/ ٢١٤.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٤.

ووصفت لنا: قبرا شيث ونوح عليهما السلام، وهما بالبِقاع، وهي على يومين من البلد (دمشق)،....وعلى هذه القبور بناء، ولها أوقاف كثيرة، ولها قيِّم يلتزمها"(١).

ويعبّر ابن جبير عن كثرة المشاهد الموجودة في دمشق، وأنها تستعصي على الإحصاء والعدّ والإحاطة بها، فيقول: "والمشاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بتقييد، وإنما رُسِم منها ما هو مشهور ومعلوم"(٢).

* * *

المؤسسات العلاجية (المارستانات): (المارستانات) كانت في الأصل تسمى (البِيمَارِستَانَات) جمع (بيمارستان)، وهي كلمة فارسية معرّبة، مركّبة من كلمتين (بيمار) بمعنى: مريض أو ضعيف، و(ستان) بمعنى: مكان، فهي إذًا: مكان المرضى أو دار المرضى(٣)، ثم اختُصرت في الاستعمال فصارت "مارستان" كما ذكرها الجوهري في الصحاح(٤).

وكانت البيمارستانات "من أول عهدها إلى زمن طويل مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية، إلى أن أصابتها الكوارث ودار بها الزمن وحلَّ بها البوار وهجرها المرضى فأقفرت إلا من المجانين، حيث لا مكان لهم سواها، فصارت كلمة (مارستان) إذا سُمعت لا تنصرف إلا إلى مأوى المجانين"(٥).

وخلال جولات ابن جبير في أنحاء دمشق ورصده للعديد من معالمها الحضارية،

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٤.

(٣) محمد ألتونجي: المعجم الذهبي: فارسي/ عربي- دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٦٩ م، ص ١٣٠، ٣٣٣.

(٤) الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية- تحقيق شهاب الدين أبو عمرو- دار الفكر- بيروت- ط١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م، ١/ ٧٢٧ (مادة مرس).

(٥) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام- دار الرائد العربي- بيروت، د. ت، ص ٤.

نجده لا يغفل الحديث عن المؤسسات العلاجية فيها والأوقاف المخصصة لها، ومنها: "المارستانات"، فقد ذكر أن المارستانات بدمشق "مفخر عظيم من مفاخر الإسلام"[1]، وذكر أنه يوجد بها مارستانان، أحدهما قديم والآخر حديث، والحديث أكبر وأكثر فخامة وامتلاءًا بالناس من القديم، والنفقة المخصصة له يوميًا خمسة عشر دينارًا[2].

ثم تحدث عن التنظيمات الخاصة بالمارستان الحديث، حيث يوجد به عدد من القَوَمَة أو المسئولين عن المرضى، ومعهم سجلات أو قوائم بأسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك، فقال: "وله قَوَمَة بأيديهم الأزمَّة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك"[3].

كما لم يغفل الحديث أيضًا عن الأطباء وعملهم وما يقومون به من جهد لرعاية المرضى، حيث ذكر أنهم يأتون إلى المارستان منذ الصباح الباكر يوميًا، يتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية لكل مريض منهم حسب حالته الصحية، فقال: "والأطباء يبكّرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم"[4].

ثم يخبرنا بأن هذه السياسة الإدارية والتنظيمية لهذا المارستان الحديث هي نفسها المتبعة مع المارستان القديم، ويحدد لنا موضع المارستان القديم بدقة، فيقول: "والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال (الزحام والامتلاء بالناس) في الجديد أكثر، وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرّم (يقصد: الجامع الأموي)"[5].

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٥.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٥.

(٤) ابن جبير: الرحلة، الصفحة نفسها.

(٥) ابن جبير: السابق، الصفحة نفسها.

كما حدثنا عن طريقة التعامل مع المجانين والعلاج الخاص بهم، حيث كانوا يقيدون في سلاسل حتى لا يصل ضررهم إلى الآخرين، ويُقدَّم لهم العلاج المناسب، يقول ابن جبير: "وللمجانين المعتقلين ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثَّقون"(١).

ومن المعروف تاريخيًّا أن هذا المارستان ينسب إلى السلطان نور الدين محمود (ت ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م)، الذي برز في الاهتمام بشئون المرضى وتخصيص دور العلاج لهم، حيث قام ببناء البيمارستانات في بلاد الشام وأكثر منها، وكان أعظمها ذلك البيمارستان الذي أنشأه في دمشق كما يذكر ابن الأثير "فإنه عظيم كثير الخرج، بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير"(٢)، بل كان بناء هذا البيمارستان فاتحة أعمال السلطان نور الدين محمود زنكي ومن أعظم مآثره في المنشآت المدنية، وكان قد أنشأه في دمشق ضمن حركته النشطة في بناء المرافق العامة في كافة أرجاء مملكته، وقد وقّف عليه جملة من الكتب الطبية(٣)، وكان يُعرف هذا البيمارستان باسم (البيمارستان النوري بدمشق)، ويسمَّى حاليًّا (متحف الطب والعلوم عند العرب)، ويقع على مسافة يسيرة من الجامع الأموي

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل- تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات- القاهرة: دار الكتب الحديثة؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٣٨٢هـ (١٩٦٣م)، ص ١٧٠. وقد علق المؤرخ أبو شامة على كلام ابن الأثير السابق (بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير)، فقال: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعرًا بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه والله المستعان، وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع منه مَن احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصَّ ذلك بذلك فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: مَن جاء إليه مستوصفًا لمرضه أُعطي، وروي أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه – أي دواءً للعلاج – وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: مَن جاء إليه مستوصفًا لمرضه أُعطي، والله أعلم". انظر: د. إبراهيم بن محمد المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي– ط ١، ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣ م، ص ٤٥٧.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء-شرح وتحقيق: د. نزار رضا- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت- د. ت، ص ٦٢٨.

وبالقرب من منطقة الحريقة[1].

* * *

أسواق دمشق: أما أسواق دمشق فقد انبهر ابن جبير بتنظيمها واتساعها، وحسن اختيار أماكنها، خاصة ما يُعرف باسم القيساريات، فقال عنها: «وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظامًا وأبدعها وضعًا، ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفناديق، متقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بضبتها وأغلاقها الجديدة"[2].

ثم يتحدث عن السوق الكبير بدمشق، ويقصد ابن جبير بالسوق الكبير الشارع المستقيم وما يحيط به من أسواق صغيرة متفرعة، ويبدي إعجابه باتساع هذا السوق، وحدثنا عن المصلّى الذي كان يلحق به، وأنه كان عبارة عن بيت صغير اتخذه الناس مكانًا لتأدية الصلاة، فقال واصفًا هذا السوق الكبير: "ولها أيضًا (أي لدمشق) سوق يُعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي، وفيه بيت صغير جدًا قد اتُّخذ مصلّى...."[3].

* * *

قلعة دمشق: ومن المعالم الأثرية المهمة التي اهتم ابن جبير بتدوين ملاحظاته عنها (قلعة دمشق)، فحدد مكانها وموقعها، وذكر أنها كانت مقرًا للسلطان في ذلك الوقت، حيث كان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد اتخذها مركزًا لعملياته العسكرية منذ توليه

---

(١) تقديرًا لمكانة هذا البناء العربي الفريد وأهميته ولدوره الكبير الذي لعبه في تطوير العلوم الطبية والصيدلانية العربية، وضمن خطة توظيف معالم سورية الحضارية والأثرية فقد قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بتجهيز هذا البناء وترميمه ليكون مقرًا لمتحف الطب والعلوم عند العرب تعرض فيه أهم الإسهامات والابتكارات والأدوات والكتب الطبية والعلمية التي قدمها العلماء العرب وأسهموا من خلالها في تقدم وتطور البشرية وافتتح عام ١٩٧٨م.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٦١.

(٣) ابن جبير: السابق، ص ٢٦٢.

السلطنة (٥٦٩-٥٨٩ هـ/ ١١٧٤-١١٩٣ م) حتى وفاته، وقد دفن- رحمه الله- بجوار القلعة وقرب الجامع الأموي، يقول ابن جبير عن تلكم القلعة: "ولهذه البلدة (يعني: دمشق) قلعة يسكنها السلطان، منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد، وبها جامع السلطان يجمّع فيه"[١].

* * *

الرباطات (أو الخوانق) في دمشق: الرباطات أو الرُبُط، جمع رباط، وهي في الأصل اسم للمكان الذي يرابط فيه الجنود لمجاهدة العدو، وحراسة ثغور الدولة الإسلامية، ثمّ استعير الاسم للأماكن التي يتخذها المتصوفة والزهاد للانقطاع فيها للعبادة ومجاهدة النفس، وهي أيضًا مأوى للفقراء وعابري السبيل[٢].

والخوانق أو الخانقاهات جمع خانقاه، وتكتب أحيانًا "خانكاه"، وهي كلمة فارسية معربة ومعناها: بيت، ثمّ أصبح المقصود بها المكان الذي يختلي به الصوفية وينقطعون فيه للعبادة، وقد عُرفت في الإسلام على ما ذكر المقريزي في حدود الأربعمائة من سني الهجرة[٣].

وتعد الخوانق والربط من أهم مراكز الصوفية ومواقع انقطاعهم في كثير من العصور الإسلامية، حيث يمارس فيها التصوف سلوكًا، بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت مع دور التعليم الأخرى في تقديم خدمات جليلة للتعليم عبر العصور، وكان التصوف في هذه الفترة اتجاهًا له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، وكان الصوفية محل

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٦١.

(٢) وقد قال المقريزي: الرُبُط: جمع رِبَاط، وهو بيت يسكنه المتصوفة والزهاد، فكأنهم يرابطون فيه، ويتفقون على قصد واحد، وهو طاعة الله، وجهاد النفس وانتظار الصلاة بعد الصلاة. المقريزي: المواعظ والاعتبار (الخطط المقريزية) ٢/ ٤٢٧.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢/ ٤١٤.

تقدير الحكام واحترامهم[1].

وقد برز السلطان العادل نور الدين محمود في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية، فأكرمهم وأدناهم من مجلسه، وبني لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته، وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم، وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساسًا لأغراض التعليم والقيام بوظائفه، وإنما بُنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون بأنفسه لعبادة الله تعالى، فخصصت تلك الدور لإقامتهم، حيث كان يُوفر لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة والتعليم بعيدًا عن مشاغل الحياة، وكان منشئوها يوقفون لها بعض الأوقاف الغنية والدارّة للصرف عليها وعلى مَن ينزل بها من الصوفية[2].

وتتشابه الرباطات أو الربط مع الخوانق في الوظائف، وإن كانت هناك بعض الاختلافات الشكلية في إمكانيات كل منها وفي تجهيزاتها؛ إذ يبدو أنّ الخوانق كانت أكبر مساحة وأكثر أوقافًا، وأنها كانت تتسع لأعداد أكثر من الرُبُط باعتبارها معدة لإقامة أطول من الإقامة بالربط.

وقد كثرت الرباطات في بلاد الشام بصورة كبيرة، وقد أثارت هذه الكثرة انتباه الرحالة الأندلسي ابن جبير، كما لفت نظره أيضًا المستوى العالي في تشييدها حتى وصفها بأنها قصور، فقال: "وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر"[3].

وهكذا يعبِّر ابن جبير عن تخصيص هذه الرباطات للصوفية الذين كانوا يحظون بالرعاية والعناية والاهتمام من السلاطين والأمراء آنذاك، وكانت هذه المنزلة الكبيرة قد

---

(١) انظر: د. إبراهيم بن محمد المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص ١٣٥.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، ص ١٧١. أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين- تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد- القاهرة: لجنة التأليف والترجمة (١٩٥٦م)، ١/ ٢٢. وراجع: د. إبراهيم بن محمد المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص ١٣٥.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٧.

جعلت ابن جبير يشبههم بالملوك في دمشق، فقال متحدثًا عن منزلتهم ومكانتهم وما يحظون من تقدير واحترام وتعظيم: "وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد؛ لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش"(١).

وعن فخامة الأماكن التي يقيمون فيها وما تمثله من معلم حضاري مهم خصصه لهم السلطان نور الدين محمود زنكي، يقول: "وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة..."(٢).

وقال عنها في موضع آخر: "... ومن أعظم ما شاهدناه لهم - يعني الصوفية - موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافًا منها، وهو من البلد - يعني دمشق - بنصف الميل، له بستان عظيم يتصل به... وقد وقفه نور الدين برسم الصوفية مؤبدًا لهم"(٣).

وقد زودت كل من الخوانق والربط- وكذلك الزوايا- بما يحتاجه المقيمون بها، ورتبت من أجل ذلك الكثير من الوظائف، حتى أنه وقّفت بداخل هذه الدور مجموعات من الكتب التي شكلت مكتبات جامعة يرجع إليها الطلبة عند الحاجة(٤).

* * *

كلمة ختامية:

وبعد، فإن القراءة المتأنية الفاحصة لرحلة ابن جبير وطوافه بأنحاء دمشق تكشف

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٦.

(٢) ابن جبير: السابق، الصفحة نفسها.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٥٧.

(٤) يحيى بن محمود: الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ١٠٧-١١٣، وقد كتب عن مكتبات الخوانق والربط بصورة مفصلة، وعدّ كثيرًا منها.

لنا عن كثير من المعالم الحضارية المهمة لهذه المدينة العريقة، فضلاً عن الكشف عن كثير من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعادات الدينية للدمشقيين، وبيان أهمية الأوقاف وأثرها فى تنمية المجتمع الدمشقى اقتصاديًا واجتماعيًا وعلميًا وثقافيًا، وتقديم معلومات مهمة عن عدد من المزارات الدينية التى يعظمها الدمشقيون، كما تكشف لنا عن عدد آخر من جوانب الحياة فى دمشق.

وبغض النظر عن كبر الرقعة التي زارها ابن جبير وكتب عنها أو صغرها، فإنه اتفق مع جميع الرحالة الذين سبقوه أو الذين جاءوا من بعده في ناحية واحدة، تجلت في أن اهتمامهم كان واحدًا تقريبًا، فقد ركزوا على وصف المواقع الأثرية والأماكن الدينية المشهورة، وتصوير ورصد الحالة الاقتصادية التي كانت سائدة في المناطق التي حلوا بها، كما وقفوا على جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية كالعادات والتقاليد والنهضة العلمية والعلاقات بين السكان الأصليين من جهة، وبينهم وبين الفرنجة من جهة أخرى، ويشغل ابن جبير الأندلسي مركز الريادة في ذلك، لأنه تميز في كتاباته عن بلاد الشام عمومًا، ودمشق خصوصًا، بالدقة العلمية والتركيز على نواح في غاية الأهمية ما زالت تؤخذ بعين الاعتبار عند إجراء أي دراسة اجتماعية أو اقتصادية، وبخاصة عن مدينة دمشق ومدن الساحل اللبناني والفلسطيني.

ومن خلال المعلومات التاريخية والحضارية التي قدمها ابن جبير في رحلته، أضحت رحلته من أهم المصادر الرئيسة للباحثين في كلٍّ من التاريخ والجغرافية والأدب، وقد وصف المهتمون برحلته أنها أشبه ما تكون بمذكرات شخصية ويوميات سفر صيغت بأسلوب بارع وبكلام سهل بسيط الأحاسيس، فكانت رحلته ذات صفة أدبية، مع العناية بالرسم والوصف، والاهتمام بالمعاهد الثقافية وبالمدارس الدينية، ودراسة الأوضاع والعلاقات الاجتماعية، وهذا كله ينمُّ عن موهبة أدبية أصيلة، وكل هذا يُضفي على الرحلة صفة التنوُّع والشمول.

فقد استطاع هذا الرحالة أن يعطي وصفًا دقيقًا ومفصلاً لكل ما وقعت عليه عينه

في دمشق الفيحاء، كما كانت لمعلوماته المستوحاة من شهاداته أثرًا طيبًا في دفع البحث التاريخي نحو دراسات متعددة عربية وإسلامية، إذ إنها أصدق صورة للعصر الذي عاش فيه صاحبها والتي يحرص كل مؤرخ وباحث على الاستفادة منها في جوانب تخص التطورات السياسية والحضارية لكثير من مدن العالم الإسلامي عامةً، ومدينة دمشق على وجه الخصوص.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

*- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م):

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل- تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات-دار الكتب الحديثة/ القاهرة، ودار المثنى/ بغداد، ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م.

*- الأصفهاني (قوام الدين الفتح بن علي البنداري، ت ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م):

- سنا البرق الشامي (وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني) - تحقيق: رمضان ششن -دار الكتاب الجديد - بيروت، ١٩٧١ م.

*- ابن أبي أصيبعة (أبو العباس أحمد بن القاسم، ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م):

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء -شرح وتحقيق: د. نزار رضا- منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.

*- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي، ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م):

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف باسم (رحلة ابن بطوطة) - دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٧ م.

*- البيدق (أبو بكر بن علي الصنهاجي، كان حيًّا في النصف الثاني من القرن ٦ هـ/ ١٢ م):

- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين - تحقيق: عبد الحميد حاجيات-المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر-ط٢، ١٩٨٦ م.

*- ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسي، ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م):

- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروفة باسم (رحلة ابن جبير)- دار صادر - بيروت- د.ت.

*- الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، ت في حدود سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م):

- تاج اللغة وصحاح العربية - تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو - دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.

*- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م):

- الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق: أ. محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي- القاهرة - المجلد الثاني- ط ١، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

*- ابن خَلْدُون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م):

- المقدمة- حققها وقدم لها وعلق عليها: عبد السلام الشدادي- منشورات خزانة ابن خلدون (بيت الفنون والعلوم والآداب)- الدار البيضاء- ط١، ٢٠٠٥ م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- مؤسسة جمال- بيروت، ١٩٧٩ م.
*- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٧٤ م):
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – حققه وضبط نصه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط ١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.
- سير أعلام النبلاء- أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط:
- ج ١ - تحقيق: حسين الأسد- مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- ج ٢ - تحقيق: شعيب الأرناؤوط-مؤسسة الرسالة- بيروت- ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- ج ٣- تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون صاغرجي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- ج ٤ - تحقيق: مأمون الصاغرجي- مؤسسة الرسالة- بيروت – ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
- ج ٥- تحقيق: شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط ١١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م.
*- سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي، ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م):
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان/ ج ٨- مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد الدكن – الهند، ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م.
*- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري، ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م):
- الطبقات الكبير – تحقيق: علي محمد عمر – مكتبة الخانجي- القاهرة – ط ١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م.
*- أبو شامة المقدسي (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م):
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين- تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد – لجنة التأليف والترجمة – القاهرة، ١٩٥٦ م.
*- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، ت ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م):
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة/ قسم دمشق – نشر وتحقيق: سامي الدهان – منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م.
*- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م):
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب – تحقيق: علي محمد البجاوي – دار الجيل – بيروت – د.ت.
*- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي، ت ١٠٧٩ هـ/ ١٦٧٨ م):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب- تحقيق وتعليق: محمود الأرناؤوط- أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط - دار ابن كثير-دمشق/ بيروت-ط ١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

*- ابن كثير الدمشقي (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م):

- البداية والنهاية - تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر- هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان- القاهرة- ط ١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م.

*- المَرَّاكُشِي (أبو عبد الله محمد بن عبد الملك، ت ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م):

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - السفر الخامس/ القسم الثاني - تحقيق: د. إحسان عباس- دار الثقافة - بيروت، ١٩٦٥ م.

*- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م):

- مروج الذهب ومعادن الجوهر - دار الرجاء- القاهرة، د.ت.

*- المَقَّرى (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣٢ م):

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر - بيروت، ٢٠٠٤ م.

*- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م):

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ (الخطط المقريزية) - دار صادر- بيروت، د.ت.

* * *

ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة:

*- د. إبراهيم بن محمد المزيني:

- الحياة العلمية في العهد الزنكي، دراسة في الازدهار العلمي عند المسلمين - الرياض/ لبنان- ط١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

*- د. أحمد رمضان أحمد:

- الرحلة والرحالة المسلمون - دار البيان العربي- جدة، د. ت.

*- أحمد عيسى بك:

- تاريخ البيمارستانات في الإسلام - دار الرائد العربي- بيروت، د. ت.

*- أحمد فائز الحمصي:

- روائع العمارة العربية الإسلامية في سورية - دون مكان للنشر، ١٩٨٢ م..

*- أغناطيوس كراتشكوفسكي:
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي (القسم الأول) – ترجمة: د. صلاح الدين عثمان هاشم- دار الثقافة بجامعة الدول العربية- القاهرة، ١٩٥٧ م.
*- د. حسين مؤنس:
- الجغرافية والجغرافيون في الأندلس – منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مدريد، ١٩٨٦ م.
*- د. عبد اللطيف حمزة:
- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي – دار الفكر العربي- القاهرة- ط ٨، ١٩٦٨ م.
*- د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي:
- التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي – دار الوفاء- المنصورة- ط ٣، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.
*- د. عز الدين عمر موسى:
- الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم – دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩١ م.
*- علي الطنطاوي:
- الجامع الأموي في دمشق، وصف وتأريخ – دار المنارة للنشر والتوزيع- جدة- السعودية- ط ١، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.
*- د. علي حسني الخربوطلي:
- الحضارة العربية الإسلامية – مكتبة الخانجي- القاهرة، د. ت.
*- فريد محمود شافعي:
- العمارة العربية الإسلامية: ماضيها وحاضرها ومستقبلها – منشورات عمادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود – الرياض، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.
*- محمد ألتونجي:
- المعجم الذهبي: فارسي/ عربي – دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٦٩ م.
*- محمد كرد علي:
- خطط الشام – مكتبة النوري- دمشق- ط ٣، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.
*- د. مصطفى السباعي:
- من روائع حضارتنا – دمشق- بيروت، ط ٢، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.

*- يحيى بن محمود بن جنيد الساعاتي:
- الوقف وبنية المكتبة العربية (استبطان للموروث الثقافي)- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية- الرياض، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

* * *

ثالثًا - المراجع الأجنبية:

*- Marçais Georges: L'art musulman, Paris, 1962.
*- Ktharina Otto-Dorn: L'architecture de l'islam, édition Albin Michel, Paris, 1967.

* * *